



الإمبريالية و التصوف

يوسف سميرين - القدس الشريف

الإمبريالية صورة متطورة من السياسة التي تؤسس وتحافظ على النفوذ والسيطرة، لتضمن دولة متطورة اقتصاديًا وعسكريًا تبعية المناطق الأخرى لها وإن كان ذلك تحت مسميات مثل التعاون السياسي^(١)، فقد تراجع سلوك الاستعمار المباشر في العالم لصالح السيطرة غير المباشرة وتعزيز النفوذ، إذ تطوّرت الأدوات الإمبريالية مع تعاظم التّقدّم الاقتصادي الرّأسمالي، وتقدّم التّقنية تبعًا لذلك، وكان للنظام الرأسمالي ارتباطه بالسياسة، إذ أضحي «المظهر الأساسي للرأسمالية الحديثة هو سيطرة الاتحادات الاحتكارية التي يكوّنها كبار الرأسماليين، حين تسيطر مجموعة واحدة على جميع موارد المواد الأولية»^(٢)، فغدا التّنافس في «الاندفاع التّوسعي لكلّ أمة رأسمالية متقدّمة سعيًا وراء العمل على نطاق دولي، وتطوّر الاحتكار، والمنافسة القومية المرتبطة بحاجات الاقتصادات المتقدّمة ذات البنى الاحتكارية»^(٣).

١ - الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط ٤، ٢٠١٤، ص ٨٠.

٢ - الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، لينين، ترجمة: راشد البرّاوي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ص ٨٩، باختصار يسير.

٣ - الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، هاري ماجدوف، مؤسسة الأبحاث العربية، ط ١ العربية، ١٩٨١، ص ١٣٩.

كان أحد مدَّعي السَّفارة عن المهدي وفق ما ساد عند الشيعة الإمامية حتى قتلته السُّلطة العبَّاسية^(٨)، ومن كلامه: «على دين الصَّليب يكون موتي»^(٩)، وقال: **كفرتُ بدين الله والكفر واجبٌ *** لديّ وعند المسلمين قبيحٌ**^(١٠) مرورًا بقوله حين سئل ما معنى لا إله إلا الله؟ فقال: «كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التَّوحيد»^(١١)، فتحول التَّوحيد إلى غنوصية خاصَّة لا يدركها إلا أمثال الحلاج، مع تعظيمه لإبليس وفرعون، قال: «صاحباي وأستاذاي إبليس وفرعون، وإبليس هدد بالنَّار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليمِّ، وما رجع عن دعواه ولم يقر الواسطة البتة»^(١٢)، ومع أنَّ كثيرين من الصُّوفية تحاشوا ذكر الحلاج لموقف الفقهاء منه، إلا أنَّ صوفيًا يصنفه كثيرون على أنَّه معتدل، وهو أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) ذكر الحلاج محتفياً بكلامه في كتابه (إحياء علوم الدِّين)، فقَسَّم التَّوحيد إلى مراتب وجعل آخرها المرتبة «الرَّابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصَّديقين وتسميه الصُّوفيَّة الفناء في التَّوحيد لأنَّه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً»^(١٣)، إلى أن يقول: «وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج»^(١٤)، أي: المرتبة الرَّابعة، ثم قال في التَّوحيد الرَّابع: «لا يجوز الخوض في بيانه»^(١٥). لقد كان دور الحلاج مهمًّا في التَّصوُّف، وبقي فيهم من يجادل في الدِّفاع عنه^(١٦)، وصار تأويل كلامه محلَّ اشتغال، وعند النَّقد لا تحاسب الأفكار على ما

هذا التَّنَافس المحموم بين الدَّول المتقدِّمة، شمل دعم أنظمة تحقق الفائدة لصالح دول المركز، مثل دعم الولايات المتحدة الأمريكية للانقلاب في تشيلي سنة ١٩٧٣م وكان ذلك بمشورة هنري كيسنجر، حتى إنَّ «التَّدخلات العسكرية للولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثَّانية قد حدثت ولا تزال تحدث في كلِّ قارَّة تقريباً، والكثير منها عظيم التَّعقيد والمدى، وباستثمار قومي هائل»^(١٧)، وكان يرافقه دوماً دعاية غير صريحة للأهداف الحقيقية للتَّدخل، بل صُوِّرت في كلِّ وقت أنَّ أفعالها «منذورة لغايات لا يرقى إليها التَّجريح مثل الحرِّيَّة والديموقراطية»^(١٨)، رغم أنَّ الواقع الذي لا يتغيَّر بالنَّسبة «للصَّحية، أنَّه لا تقدِّم الإمبريالية سوى البديلين التَّاليين: فلتخدم، أو فلتدمر!»^(١٩).

ولضمان ذلك سعت الإمبريالية لنشر ثقافة تسهَّل عملها، وأحياناً تحالفت مع ثقافات محلية موجودة يمكن استثمارها في تضليل رُؤية واقعها، ومن بين تلك الثقافات: التَّصوُّف، فقد حمل تراثيًّا شحنة كبيرة من المؤهلات التي تجعله خاضعاً، وإنَّ ثار أصحابه فهو يحمل في داخله ما يمنع عليهم القدرة على تحقيق فعالية في مواجهة القوى التي تسعى للسيطرة على المناطق التي ينتشرون فيها لأسباب تتعلق بالنَّظرة الصُّوفية للعالم.

فقد تأسس التَّصوُّف بأهداف مخالفة للغايات السِّياسية، فهدفه تهذيب النفس لا تنظيم المجتمع، ودار في فلك الوعود بالنَّجاة الرُّوحية لا الهندسة السِّياسية، وهو يدعو إلى تجاوز التَّعلق بالعالم لا السَّيطرة عليه، ويرى الفناء لا الصِّراع الاستراتيجي طويل المدى، فقد نشأ التَّصوُّف في مرحلة باكرة وبدأ يوطد دعائمه مطلع القرن الثَّاني الهجري^(٢٠)، بالتَّعشُّف والانهماك بالحالة القلبية الفردية، حتى دفعت الكلمات الأولى للصُّوفية إلى مراحل أخرى تالية عليها، منها ما تمظهر في الطَّرقية التي يترتَّب على رأس تجمَّعاتها شيوخ وتحتهم في الرُّتبة مريدون، وبلغ التَّصوُّف أحياناً مرحلة متطرِّفة من الصِّدام مع ظاهر الشَّريعة مثل حسين بن منصور الحلاج (٣٠٩هـ) الذي تحرَّك في ثقافة قريبة من التَّشيع الإمامي، إذ

٤ - الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، ص ١٢٢.

٥ - المصدر السابق، ص ١٢٢.

٦ - المصدر السابق، ص ٢٢٩، بتصرُّف يسير.

٧ - تفصيل تاريخه سيكون في كتاب مستقل إن شاء بعنوان (أصل الكلام).

٨ - انظر: تاريخ الغيبة الصُّغرى، محمد الصُّدر، دار التَّعارف للمطبوعات، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٤٥٣/١.

٩ - الحلاج: الأعمال الكاملة، قاسم محمد عباس، رياض الريس للكتب والنشر، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٣٣٤.

١٠ - أخبار الحلاج؛ من أندر الأصول المخطوطة في سيرة الحلاج، علي بن أنجب الساعي البغدادي، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دار الطليعة الجديدة، ط ٢، ١٩٩٧م، ص ٩١.

١١ - المصدر السابق، ص ٨٢، ٨٣.

١٢ - الطَّواسين، ضمن: الحلاج: الأعمال الكاملة، ص ١٩٢، ١٩٣.

١٣ - إحياء علوم الدِّين، أبو حامد الغزالي، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ١٦٠٤.

١٤ - المصدر السابق، ص ١٦٠٥.

١٥ - المصدر السابق، ص ١٦٠٥.

١٦ - لطائف المنن والأخلاق في وجوب التَّحدث بنعمة الله على الإطلاق، عبد الوهاب الشَّعراني، اعتنى به: أحمد عزو عناية، دار التقوى، ط ١، ٢٠٠٤هـ، ص ٥٦٥، باختصار.

للنَّص، وهذا مرتبط بتعطيل تأثير الأشياء وما لهذا من إضعاف مفهوم السَّببِيَّة، وبهذا أسَّسوا لعقل ينفصل عن تحليل العلاقات بين المستغل والمستغل، أو إدراك عالم موضوعي خارج إطار التَّصوُّف نفسه، فأَيُّ شيء يخدم الثَّقافة الإمبريالية أفضل من القول بأنَّه ما ثمَّ إلا الواحد كمرتبة في التَّوحيد لا يعلى عليها!

"بقي تدوين الشُّطحات في كتب الصُّوفية متوارثاً وهي تدور حول تعظيم الأقطاب والأوتاد الذين اعتقد بهم المريدون، وهو ما أسس (إقطاعاً روحياً) يدور حول الشيخ تتقاطع مع عدة أهداف للإمبريالية، ومنها إشغال الشعوب وإلهائها عن نهب ثرواتها أو اضطهادها، فعند إحياء هذا التراث بينهم، فإنَّ أول ما يميِّزه الغنوصية التي تشوه العلاقة بين السَّبب والنتيجة، فغاية الرُّتب الفناء في التَّوحيد، وعدُّ منتهاه سرّاً لا يذاع، بالأ يري في الكثرة إلا واحداً، وأنَّ هذا أقصى الدَّرجات، فماذا بقي لفهم العلاقات الدَّولية، والاستغلال الذي تقوم به الإمبريالية، والعلاقة بين الاقتصاد والسياسة فيما يُعرف بالعلم الاجتماع السِّياسي؟ وسبق أن تعرضت الكنيسة للنقد حيث إنَّ «الكاهن يعرف خطراً واحداً فقط: العلم، والمفهوم السليم للسَّبب والنتيجة»^(١٧)، وهنا السَّبب في نظر المتصوِّف يحوم حول إثبات مؤثِّر غير الله أو إثبات الكثرة، فما ثمَّ إلا الله كما صرَّح من يقول بوجوده، أو القول بأنَّه لا يرى إلا الله عند من يقول بوحدة الشُّهود، ويصعب فصل مجمل تراث التَّصوُّف عن هاتين الفكرتين، إذ إنَّ كثيراً مما تناثر وسبق على هذا من كلمات متقدمي الصوفية كان قد دفع إليه، ودفع المتأخرين إلى التزامه.

هذا الدَّوران في فلك الشَّيخ والطَّريقة يدفع إلى القول بأنَّ تلك الطُّرق إن قررت الدُّخول في مواجهة مع فئات مستغلة، فإنَّ أصحابه لو اتسقوا مع تلك الأفكار فلن يكونوا قد امتلكوا الأدوات اللازمة لممارسة نضال سياسيٍّ فعَّال، فالطَّريقة لا تقوم على هيئة مؤسسة حديثة، ولا على أفكار تؤسس لهذا، بل تدور في فلك العارف والشيخ الأوحده، صورة للإقطاعي الذي يعمل في أرضه مجموعة من العبيد في الواقع المادي في القرون الوسطى، لكنَّه منسحب في التَّصوُّف على هيئة ثقافة مكثَّفة، ويخفي هذه العلاقة الداخلية فناء الأتباع عن إبصارها وتعظيمهم للشَّيخ، بما عطلَّ فيهم الحسَّ النَّقدي، وإن مارست تلك الطَّريقة عنفاً ثورياً فغالباً ما تخلط بين العنف السِّياسي والطَّائفي، وبهذا فإنَّ تلك النُّظرة تُصعِّب المهمة وتطيِّلها، وإن قدر نجاحها في مدافعة محتلٍّ مثلاً، فإنَّها تحمل في بذورها ما يزرع ألعاباً لما بعد في شكل نظام الحُكم، وموقف المجتمع من العلم، وطرق النهضة الاقتصادية والصُّناعية، وقد ازدهرت المقالات الصُّوفية في عصرها الدَّهبي في ظرف العزوف عن الحياة السِّياسية في العصر العباسي، وهو ما مكَّن لحكمهم الطَّويل، وبهذا ورثت دعم تلك الطرق في الأنظمة التالية، كالأتراك في زمن

تمنعه فحسب، بل على ما تسمح به، فقد بقي تدوين الشُّطحات في كتب الصُّوفية متوارثاً^(١٧)، وهي تدور حول تعظيم الأقطاب والأوتاد الذين اعتقد بهم المريدون، وهو ما أسس (إقطاعاً روحياً) يدور حول الشَّيخ بما يظهر عدَّة نواحٍ دفع إليها التَّصوُّف أو لا يمنعها على الأقل، وهي تتقاطع مع عدة أهداف للإمبريالية، ومنها إشغال الشعوب وإلهائها عن نهب ثرواتها أو اضطهادها، فعند إحياء هذا التراث بينهم، فإنَّ أول ما يميِّزه الغنوصية التي تشوه العلاقة بين السَّبب والنتيجة، فغاية الرُّتب الفناء في التَّوحيد، وعدُّ منتهاه سرّاً لا يذاع، بالأ يري في الكثرة إلا واحداً، وأنَّ هذا أقصى الدَّرجات، فماذا بقي لفهم العلاقات الدَّولية، والاستغلال الذي تقوم به الإمبريالية، والعلاقة بين الاقتصاد والسياسة فيما يُعرف بالعلم الاجتماع السِّياسي؟ وسبق أن تعرضت الكنيسة للنقد حيث إنَّ «الكاهن يعرف خطراً واحداً فقط: العلم، والمفهوم السليم للسَّبب والنتيجة»^(١٧)، وهنا السَّبب في نظر المتصوِّف يحوم حول إثبات مؤثِّر غير الله أو إثبات الكثرة، فما ثمَّ إلا الله كما صرَّح من يقول بوجوده، أو القول بأنَّه لا يرى إلا الله عند من يقول بوحدة الشُّهود، ويصعب فصل مجمل تراث التَّصوُّف عن هاتين الفكرتين، إذ إنَّ كثيراً مما تناثر وسبق على هذا من كلمات متقدمي الصوفية كان قد دفع إليه، ودفع المتأخرين إلى التزامه.

وأسس هذا لتعطيل ملكات العقل عن إدراك قوانين العالم إذ مال كثير من الصُّوفية إلى تعطيل التَّحسين والتَّقيُّب عقلاً متابعاً لمقالة الأشعرية، والقول بأنَّ التَّحسين والتَّقيُّب شرعيان فحسب، وفي هذا يقول الكلاباذي (٣٨٠هـ): «القبیح ما قبَّحه، والحسن ما حسَّنه»^(١٨)، فما ثمَّ من سبب موضوعي في الأشياء نفسها يدعو لتقبیحها وتحسينها، إنما ذلك تابع

١٧ - الفتح في تأويل ما صدر عن الكمَّل من الشُّطح، عبد الوهاب الشعراني، عن مخطوط أوقاف بغداد برقم ٧٠٧١، ومخطوط دار المخطوطات رقم ٢٣٤١، مطبوع مع كتاب أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق وتقديم: قاسم محمد عباس، دار المدى، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ١٤٠.

١٨ - عدو المسيح، فريدريك نيتشه، ترجمة: جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، ط ٢، ص ٤٢.

١٩ - الثُّعروف لمذهب أهل التَّصوُّف، محمد بن إسحق الكلاباذي، ضبط نصّه: أحمد شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص ٥٥.

حكم آل عثمان، وهو نفسه المتوقع في المناطق التي ينتشر فيها التصوف أن تكون تلك التركة معاندة تنظيرية وسلوكية لإبصار علاقات الاستغلال وإبصار مواضع التأثير السياسي، في عهد الشركات الحديثة، وأساليب الإخضاع والدعاية العصرية. على أن المرء قد يحمل تناقضاً بين التنظير والسلوك، فقد تجد واحداً يؤمن بأن كلمة الرب تقول له: «لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً»^{٣٩}، ولكنه عملياً يستعمل سلاح دمار شامل إن وجد مصلحة له في ذلك، هذا التناقض موجود، لكن صاحبه لا يكون قد انتزع الموقف من التنظير الذي يناقضه، بل من البراغماتية السياسية التي نشأ في أروقتها، وبهذا فإن التراث الصوفي لا يتوقع منه أن يكون أرضية لممانعة الإمبريالية، بل على العكس من ذلك فإنه يضع بذوراً تهوّش العلاقة تماماً وتلهي المعتنقين- ما داموا مطّردين معها- عن إبصار استغلالهم، نعم! قد تصنع مقاتلين يقدمون على الموت بفناء راقص مولوي، لكن

٢٠ - العهد الجديد، متى، رقم: ٣٩.

هذا لا يصنع وعياً سياسياً ولا يؤسس لفكر حديث يفضح الإمبريالية، فضلاً عن قدرته على خلق كتلة سياسية ممانعة، ولهذا لم يكن غريباً على روسيا أن تعتمد على الصوفية، حتى قال فيتالي ناؤمكن، المدير العلمي لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية: «أضحى الصوفيون ركيذتنا» في تصريح مصوّر، وكذلك يقال الأمر في غيرها، فقد ورد في تقرير لمؤسسة (راند) الأمريكية لسنة (٢٠٠٤) توصية بدعم الصوفية بما يخدم النفوذ الأمريكي، فجاء فيه: «ينبغي تشجيع النفوذ الصوفي على المناهج المدرسية، والأعراف، والحياة الثقافية بقوة في البلدان التي تمتلك تراثاً صوفياً، مثل أفغانستان أو العراق، ومن خلال تبّعها وموسيقاها وفلسفتها»^{٤٠}.

٢١- بينارد، شيريل. (٢٠٠٣). الإسلام الديمقراطي المدني: الشركاء والموارد والاستراتيجيات. مؤسسة راند (RAND Corporation)، سانتا مونيكا، كاليفورنيا، ص ٤٦.

